مَـا دَوْرُ الـسُّـلْـطَـانِ!

تَعالَتْ أَصْواتَ الْمُجْتَمِعِين، كُلٌّ يُدْلِي بِرَأْيِهِ دُونَ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىَ رَأْيٍ وَاحِدٍ ، إِلَى أَنْ جَاءَ صَوْتٌ مِنْ بَعِيدٍ ؛ نَحْنُ سَنَدْفِنُهُ فِي ساحَةِ مَسْجِدِ بايَزِيدَ ، اِلْتَفَتَ النَّاسُ نَحْوَ الرَّجُلِ الَّذِي كانَ راكِباً حِصانَـهُ ، وَيـُحيطُ بِهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الحَرَسِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ.

أَجَابَهُ أَحَدُ الْمُتَجَمْهِرِينَ بِاسْتِهْجَانٍ وَاسْتِنْكارٍ : تَدْفِنُ فِي سَاحَةِ الْمَسْجِدِ رَجُلاً كانَ يَتَعاطَى الخَمْرَ، وَيُماشِي نِساءَ السُّوءِ! ، أَتُلَوِّثُ التُّرْبَةَ الطَّاهِرَةَ بِجَسَدٍ دَنَسَتْهُ الذُّنوبُ وَالخَطَايَا!؟.

لَمْ يَأْبَهُ الرَّجُلُ بِما سَمِعَ وَأَمَرَالرِّجَالَ مِنْ حَوْلِهِ أَنْ يَحْمِلوا الْـجُـثَّـةَ وَيَنْطَلِقوا بِهَاإِلَى مَسْجِدِ بَايَزِيدَ.

قال أَحَدُ الحَرَسِ الْمُحِيطِينَ بِالرَّجُلِ : يا سَيِّدِي ؛ أَما زِلْتَ مُصِرًّا عَلَى دَفْنِ الرَّجُلِ في ساحَةِ الْبايَزيد.

قال : نَعَم، وَلَنْ نَدْفِنَهُ إِلاَّ هُناكَ بِإِذْنِ الله.

كانَ ذلِكَ الرَّجُلُ هُوَ السُّلْطانُ مُرادُ الثَّالِثُ الَّذي سَمِعَ هَاتِفًا في مَنَامِهِ ، يُـخْبِرُهُ فِيهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ إِسْطَنْبول ، وَقَدْ تُوُفِّيَ فِيهِ رَجُلٌ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَدْفَنَهُ في ساحَةِ مَسْجِدِ بايَزيد...

ظَلَّ السُّلْطانُ مُرَادٌ حَائِراً فِي سِرِّ ذلكَ الهَاتِفِ ، وَزَادَتْ حَيْرَتُهُ حِينَ سَمِعَ رَأْيَ النَّاسِ فِيهِ ، فَأشارَ عَلَيْهِ أَحَدُ وُزَرَائِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلى مَنْزِلِ الرَّجُلِ ، وَيَسْأَلَ زَوْجَـتَهُ ،فَهِي مَكْمَنُ سِرِّهِ ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهَا تَعْرِفُ مِنْ أَحْوالِهِ مَالَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ.

هَزَّ السُّلْطانُ رَأْسَهُ مُوافِقًا لِمَا سَمِعَ وَعَلى الْفَوْرِ أَرْسَلَ أَحَدَ رِجَالِهِ حَتَّى يُرْشِدَهُ إِلَىَ بَيْتِ الرَّجُلِ .

وَمَاهِيَ إِلاَّ أَيَّامٌ حَتَّى كَانَ السُّلْطانُ يَجْلِسُ فِي بَيْتِ الرَّجُلِ مَعَ زَوْجَـتِـهِ.

كانَ الْبَيْتُ يَلُفُّهُ الْفَقْرُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَتَفوحُ مِنْ زَوَايَاهُ رَوَائِحَ الْعَوَزِ وَالحَاجَةِ.

لَمْ يَسْتَطِعْ السُّلْطَانُ أَنْ يَكْتُمَ دَهْشَتَهُ وَاسْتِغْرابَهُ مِن شِدَّةِ الْفَقْرِ الَّتِي تَحْيا بِهِ هَذِهِ الْعَائِلَةُ ،فَقَالَ: هَلْ كانَ زَوْجُكِ فَقِيراً ، لَا يَمْلِكُ المَالَ ؟

رَدَّتِ الزَّوْجَةُ قَائِلَةً : كَلاَّ وَاللهِ لَقَدْ كانَ صَانِعاً مَاهِراً لِحَدَوَاتِ الخَيْلِ ، وَكَانَ يَكْسِبُ مِنْهَا المَالَ الْكَـثِـيرَ .

قَالَ السُّلْطَانُ : إِذَنْ لَقَدْ كَانَ مَا سَمِعْتُهُ فِي حَقِّهِ صَحِيحًا .

قَالَتِ الزَّوْجَةُ : وَمَاذا سَمِعْتَ ؟

سَمِعْتُ أَنَّهُ كانَ يَتَعاطَى الخَمْرَ ، وَيُماشِي نِساءَ السُّوءِ ، وَأَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَالِهِ كانَ يُهْدِرُهُ عَلَى ذَلِكَ.

تَبَسَّمَتِ الزَّوْجَةُ قائِلَةً : كَلاَّ وَاللهِ ، مَا أَظُنُّهُ إِلاَّ كَانَ صَالِحًا وَصَادِقًا.

قَالَ السُّلْطَان : وَأَيْنَ هُوَ مِنَ الصَّلاَحِ ؟

قالَتِ الزَّوْجَةُ : لَقَدْ كَانَ زَوْجِي يَنْصَرِفُ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَعودُ إِلى مَنْزِلِهِ سَيْرًا عَلَى قَدَمَيْهِ ،وَكُلَّمَا رَأَى رَجُلاً يَحْمِلُ زُجَاجَةَ خَـمْرٍ وَ يَشْرَبُ مِنْهَا؛ حَاوَلَ أَنْ يُـثْـنِـيَهُ عَنْ شُرْبِهَا بِإِعْطَائِهِ المَالَ مُقابِلَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الزُّجَاجَةَ ، لِيَـكْسِرَهَا وَيُهْرِقَ مَا فِيهَا مِنْ خَـمْرٍ ، أَمَّا مُصَاحَبَةُ نِسَاءِ السُّوءِ فَهُوَ مِنْهَا بَرَاءٌ ؛ فَقَدْ كانَ كُلَّمَا رَأَى بِنْتاً زَاغَتْ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ ، سَارَ مَعَهَا إِلَى بَيْتِهَا نَاصِحًا وَاعِظًا ، وَيُقَدِّمُ لَهَا شَيْئاً مِنَ المَالِ ، عَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ لَهَا عَوْناً عَلَى تَرْكِ الْفَحْشَاءِ وَالْاِبْتِعَادِ عِنِ الحَرَامِ.

قَالَ السُّلْطَانُ : أَلَمْ يَكُنْ زَوْجُكِ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ فِي الحَيِّ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ وَلَا يَجِدُ مَنْ يَدْفِنُهُ هُنَاكَ؟

قَالَتْ الزَّوْجَةُ : كَانَ على لِسَانِهِ كَلِمَةٌ يُرَدِّدُها دَائِمًا:"إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَمَا دَوْرُ السُّلْطَانِ !!!"